

النَّيْتُ فِي الْعَرَبِ

الرواية

الأستاذ عبد الحق فاضل « الدار البيضاء »

المدد من الثلاثة الى العشرة ، فقالوا مثلا : سبعة
رجال ، بدلا من : سبع رجال .

ولا يحق لنا التبادي اكثر من هذا في هؤلئه رأى
الباحث المستشرق اهتماما على الذاكرة بعد هذا الامد
المطابق ، مخالفة ان نظلم الرجل منعزو اليه ما نتوهم
انه قاله وهو لم يقله ، او قاله على نحو آخر . لكننا
نذكر اننا حين قرأتنا ذلك البحث لم نتفتح بنا ويلاته ولو
اننا تقبلناه على انه مقال طريف ومحاولة جريئة لتنسbir
ظاهرة لغوية غريبة ، من زاوية جديدة .

اما بقصد النقطة الاولى ننان الكثير من اسماء
الجمادات لا يخضع للقاعدة المذكورة تند وردت في
المربيبة مؤنثات من الجمادات لا مشابهة لها بالأنوثة
كالماء والفاس والذراع ، ومذكرات لا شبه لها
بالذكورة كالوادي والغار ، والجب الرائد للبشر
المؤنثة .

اما بقصد النقطة الثانية ماذا اعتبرنا الثانيت في
بعض الحالات تكريما للمرأة حيث قيل سبعة رجال ننان
الباحث لم يذكر لميما نظن ان اسم العدد يذكر ايضا مع
المؤنث - مما يتخل هيبة المرأة ويغفل من سلطتها -
ليقال (سبع) نساء ، بدلا من سبعة نساء . ولم يحل
المستشرق الفاضل تذكرة ذلك ونسره بطريقته لم
تنتمنا على كل حال .

ترات منذ اكثر من مترين هاما - في مطبوع
ما ، لم له مجلة غاب من بالى عنوانها - لمستشرق
نسبت اسمه - بحثا ثائعا حاول به تسخير ظاهرة
الثابت في لغتنا بما فيها من غرابة وغموضات . والذي
 تستطيع الذاكرة ان تست晦ه الا ان ذلك البحث هو
النقطتان الاساسيتان اللتان عليهما كان مدار الموضوع .
النقطة الاولى قوله ان العرب اثروا من الجمادات
ما هو شبيه بالأنوثة مما كان مثقبا او مهينا او موطوءا
او نحو ذلك ، كالرحي والبتر والارض . وبوسمنا جريا
على هذه النظرية ان نضيف الى ذلك من الجمادات
المؤنثة التي تشبه المرأة ما كان سانيا كالسماء ، ووهاجا
كالشمس ، ومتقلبا كالربيع ، ومحرقا كالجحيم ، ومدمرا
والحرب ..

والنقطة الثانية قوله ان العرب كانوا قد مروا
في احد مهودهم القدم بمرحلة الامومة كغيرهم من
الام ، اي مرحلة سيادة المرأة الام على العائلة قبل
الانتقال الى مرحلة الابوة اي سيادة الرجل الاب .
ويخيل لي ان المستشرق قد استشهد على رأيه هذا
بنبذة من كلام هيرودوت من ملامة مخايرة للمالكون
الحديث كانت على مدهه قائمة بين الرجل والمرأة ،
لدى بعض العرب ، ولا نحسب ان ذلك الاستشهاد
كان وانيا ببراءه لانه لا يدل على سيادة المرأة فيما
نذكر . وعلى اية حال كان من تأثير سيطرة الانثى الام
على قوله ، ان العرب اثروا الكثير من اسماء الاشياء
غير المؤنثة ، حتى من الذكور البشر ، كثانية اسم

إشارة ، نحن الحالهم المهزأ بها ملتوحة ومضمومة ومكسورة نشأت حركات الاعراب ، ومن العاق النون بها نشأ التنوين بمحظك حالاته .

الناء :

والذي يهدينا إليه استعراض الشماائر العربية في شئ احوالها وصورها هو أن هذه العناصر الشميرية البدائية الثلاثة لم تنشأ في مكان واحد عند ميريق معين من الامريين (العرب الاولى) ، بل أن كل طائفة منهم كانت تستعمل واحداً من هذه الشماائر . ميريق منهم كانوا يستعملون سمير (تا) كما كان ميريق ثان يستعملون سمير (آ) وميريق ثالث سمير (نا) كالذى فصلناه وعلناه في كتابنا «الناف الذكر» ، فلا حاجة للإعادة فيه هنا .

ومعنى كان نصيب الناء ان الحتوما كاخويمـا الضميرين الآخرين بالاسماء والاعمال . وهذا هو سر وجود الناء في بعض الاسماء مثل : جبـة ، هـبة ، أجـة ، مـقدرة ، خـشـبة .

ليس التائيـث هو الغرض من الناء في اسماء هذه الاشيـاء المجردة من اي اثر لـاي تـائيـث او تـذكـير ، وإنـما النـاء هـنا مجرد بقـية اـفرـيقـة من عـهـد لـفـوي مـنـدرـسـ بـعـيدـ كانوا يـبهـيـلـونـهاـ بكلـ الـاسـمـاءـ والـاعـمـالـ .

وقد كان من نتيجة اختلاط التبيل الذين يستعملون الناء بغيرهم من الامريين الذين لا يستعملونها ان صفت شـائـهاـ وـقـلـ استـعمالـهاـ حتىـ انـهاـ سـقطـتـ منـ كـثـيرـ منـ الـاعـمـالـ مثلـ : الـعـلـمـ وـتـنـعـلـ وـيـعـلـمـ ، وـمـعـظـمـ الـاسـمـاءـ مثلـ : جـبـلـ ، طـبـيرـ ، نـهـرـ ، أـرـضـ ، كـوـكـبـ ، تـرـابـ ، بـحـرـ ... وـبـيـتـ عـالـتـةـ باـسـمـاءـ اـخـرىـ كالـتـسـ ذـكـرـناـهاـ : هـبـةـ ، جـبـةـ ، الخـ ... وـبـيـتـ مـارـجـةـ فـيـ اـسـمـاءـ اـخـرىـ حيثـ يـكـنـ حـذـفـهاـ وـأـبـانـهاـ فـيـ مـثـلـ : لـيـلـ وـنـجـمـ .

تلـناـ انـ النـاءـ الحـتـومـاـ بـالـاسـمـاءـ وـالـاعـمـالـ لـادـاءـ معـنىـ الشـماـائرـ اوـ اـسـمـاءـ الـاـشـارةـ اـولـ الـامـرـ ، لـكـنـ تـطاـولـ الـاحـتـابـ وـتـعـاـنـبـ الـاجـيـالـ جـعـلـمـاـ تـظـهـرـ اـولاـ فـيـ صـورـ مـخـفـيـةـ بـسـبـبـ اـخـتـالـفـ الـقـوـمـ فـيـ نـطـقـهاـ كـمـاـ تـلـناـ ،

ولـانـدـرـيـ الـآنـ ماـ اـذاـ كـذـكـانـ الجـمـادـ تـلـنـتـ وـفـنـكـرـ فـيـ الـلـاتـيـنـ وـبـنـانـهاـ . نـهـلـ نـعـزـوـ ذـلـكـ الىـ مشـابـهـ الـمـسـيـاـتـ لـذـكـرـةـ وـالـأـنـوـةـ اوـ الىـ سـيـطـرـةـ الـأـمـ الـمـلـىـ الـرـوـمـانـ قـبـلـ اـنـ تـوـطـدـ لـدـيـمـ سـيـطـرـةـ الـأـبـ اـيـضاـ !

ويـلاحظـ انـ اـسـمـ الـجـمـادـ الغـلوـ (١)ـ فـيـ الـلـاتـيـنـ اـسـمـ اـذـكـرـ نـعـطـ وـاـسـمـ مـؤـنـثـ نـعـطـ . وـاـسـمـ الـعـرـبـ مـانـ الكـثـيرـ مـنـ اـسـمـاءـ الـاخـلـاءـ يـجـزـءـ فـيـهـ الـلـذـكـرـ وـالـتـائـيـثـ . فـهـذـاـ يـضـعـفـ رـأـيـ الـمـسـتـشـرـقـ الـبـاحـثـ فـيـ قـوـلـهـ اـنـ لـشـابـهـ الـاـشـيـاءـ بـالـاـنـوـةـ عـلـاـقـةـ بـالـسـالـةـ . وـلـوـ نـعـنـ مـضـيـنـاـ فـيـ الـتـطـبـيـقـ تـيـلـاـ مـعـنـ نـظـرـيـتـهـ لـعـلـنـاـ اـنـ جـواـزـ التـذـكـرـ وـالـتـائـيـثـ فـيـ الـكـثـيرـ مـنـ اـسـمـاءـ الـاخـلـاءـ فـيـ الـعـرـبـ يـدـلـ عـلـىـ مـرـورـ الـعـرـبـ بـعـدـ مـاـ سـادـتـ فـيـهـ الـخـنـشـ عـلـىـ الـعـائـلـةـ . تـبـلـ الـادـلـاءـ بـرـايـنـاـ فـيـ تـسـيـرـ ظـاهـرـةـ التـائـيـثـ يـطـالـبـنـاـ الـاـنـعـامـ اـنـ نـحـيـنـ هـذـاـ الجـهـدـ الـمـخـلـصـ الـذـي اـنـتـهـيـ الـمـفـسـالـ الـمـسـتـشـرـقـ - المـجـهـولـ لـدـيـنـاـ فـيـ الـوقـتـ الـحـاضـرـ ، وـقـدـ نـهـتـدـيـ اـلـىـ مـعـرـفـةـ اـسـمـهـ ذاتـ يومـ - نـهـوـ وـاـمـثالـهـ مـنـ الـبـاحـثـينـ الـاجـانـبـ ، الـذـينـ قـامـواـ بـعـملـيـةـ اـسـتـكـانـ وـاسـعـةـ الـمـجـالـ فـيـ قـارـةـ الـقـرـاثـ الـعـرـبـيـ وـمـنـ تـرـاثـ الـلـفـةـ ، تـدـأـدـواـ اـلـىـ الـعـرـبـيـةـ خـدـمـاتـ تـيـمـةـ مـشـكـورـةـ ، وـلـاـ عـبـدـ هـلـيـمـ اـنـ اـخـطاـلـاـ اـحـيـانـاـ ، مـنـ لـهـمـ الـفـضـلـ اـنـمـ اـسـبـواـ اـحـيـانـاـ كـثـيرـةـ اـخـرىـ .

الـشـمـائـيرـ الـعـرـبـيـةـ :

اـذـاـ حـلـلـنـاـ الـشـمـائـيرـ الـعـرـبـيـةـ - اـنـاـ ، اـنـتـ ، هـوـ .. الـخـ - نـجـدـهـ تـقـالـدـ مـنـ ثـلـاثـ مـنـاصـرـ اـسـاسـيةـ : الـاـلـ وـالـلـنـونـ وـالـنـاءـ . وـتـدـنـيـتـنـاـ فـيـ كـتـابـنـاـ «ـسـعـامـرـاتـ لـنـوـيـةـ»ـ (فـيـ فـصـلـ اـسـرـارـ الـشـمـائـيرـ)ـ (٢)ـ بـشـيـهـ مـنـ التـنـصـيلـ الـهـذـهـ الـعـنـاصـرـ الـشـمـائـيرـ الـلـلـاـلـةـ الـتـيـ نـطـقـهـاـ الـاـنـسـانـ الـاـقـدـمـ (آ)ـ وـ (نـا)ـ اوـلـ الـاـمـ ، ثـمـ تـطـورـتـ مـتـعـدـدـتـ مـيـفـهـاـ وـتـوـهـتـ مـعـانـيـهـاـ ، اـيـ انـ الـاـقـدـمـيـنـ كـانـوـاـ يـفـتـلـوـنـ فـيـ نـطـقـ هـذـهـ الـشـمـائـيرـ مـنـشـاتـ لـهـاـ صـيـغـ كـثـيرـةـ ، وـكـانـوـاـ لـفـرـهـمـ الـلـفـويـ يـسـتـعـمـلـوـنـ كـلـاـ مـنـ تـلـكـ الصـيـغـ فـيـ مـخـلـفـ الـعـانـيـ الـتـيـ يـتـوـقـونـ السـ اـلـاصـحـ مـنـهـاـ وـلـاـ يـجـدـونـ الـلـاحـاظـ الـمـعـرـفـةـ مـنـ كـلـ مـنـهـاـ . وـكـانـوـاـ يـلـعـنـونـ هـذـهـ الـعـنـاصـرـ الـبـدـائـيـةـ (آ ، نـا ، تـا)ـ بـالـاسـمـاءـ وـالـاعـمـالـ كـشـمـائـيرـ اوـ اـسـمـاءـ

(١)ـ نـسـتـعـمـلـ كـلـمـةـ الـغـلوـ - زـنـةـ الصـنـوـ وـالـشـلـوـ - بـمـعـنىـ الشـيـءـ الـخـالـيـ مـنـ الـاـنـوـةـ وـالـذـكـرـةـ . وـمـنـثـهاـ : الـغـلوـ ، وـجـمـعـهـاـ : الـاخـلـاءـ - زـنـةـ الـاـشـلـامـ .

(٢)ـ وـفـيـ مـجـلـةـ «ـالـلـسـانـ الـعـرـبـيـ»ـ الـمـدـدـ الـخـامـسـ ، لـسـنـةـ ١٩٦٧ـ .

حدثت الناء منها ، مثل : الامسية والبكرة والرئنة والبورة — ملا معنى لالناظ الامسي والبكر والبرىء والبؤر . اي ان الناء هنا قد التمكنت ببناء الكلمة فاصبحت جزءا من نسيجها كحروفها الاصلية . وهذه يصح ان نسميتها (الناء الازمة) .

رابعا : سارت الناء اداة لتكوين بعض المصادر كما في التعلين: دحرج واستقام، مصدر اهاما: درجة واستقامة — وهي تعادة تعباسية لا حيد عنها ، اما في الفعل المشعف فنان الناء وجوبية احيانا في مثل : ومس تومسية وعبا تعبة .. وجوازية احيانا في مثل : قدم تندمه او تقديمها ، وكرم تكرمة او تكريما .. ومنشومة احيانا كما في علم تعليمها وكرس تكثيرها ، ملا يقال تعلم ونكسة . وهذه اجرد بيان نسميتها (الناء المذرية).

خامسا : سارت الناء تؤدي معنى الحركة في مثل: الكمانة والسفاره والسدانة والعبايفه — اي حرفه الكاهن والسلير والسادن والمائد . وهذه نسميتها (ناء الحرفه) .

سادسا : سارت الناء تؤدي ايضا معنى توكيده الصفات في مثل : النسابة والذوافه والراوية . فإذا حذفنا الناء من هذه الصفات فقلنا النساب والذواف والراوي ، ضفت توة المعنى ، على حين انه لا يجوز حذفها من بعض الصفات المؤكدة بها مثل الطلمسة والهمزة واللمسة (بضم الاول وفتح الثاني في اللقطات الثلاث) — اي الكثير التطلع والهمار واللماز ، ملا يقال فيها : الطلع والهمز واللمز ، وهذه الناء اجرد بيان نسميتها (ناء التوكيد) . وهي ناء لازمة في نفس الوقت في الطلمسة والهمزة واللمسة .

سابعا : سارت الناء تدل على معنى الافراد في بعض الاسماء كالشجرة والحمامة والسمكة ، ماذا حذفت من هذه الاسماء وأمثالها سارت تدل على الجمجم اي اسم الجنس : الشجر ، الحمام ، السمك ، ولا يمكن اعتبارها ناء ثانٍ حتى في الحمام والسمكة وفيها من الاحياء ، لأن الكثير من امثال هذه الاسماء تطلق على الذكر والانثى دون تمييز . وتتجلى وظيفة الافراد على نحو اوضح في مصادر بعض الاعمال. فالنظرية هي النظر مرة واحدة ، والابتسامة والضريمة والاكلة هي الابتسام والضربي والأكل مرة واحدة . وهي ادنى (ناء الافراد) .

ثامنا : على المكس من هذا سارت الناء تعنى الجمع في اسماء اخرى مثل : العدناني والخطاطي

وتؤدي ثانيا اغراضها مختلفة يسبب البقر اللغوي الذي المعنا اليه ما اضطرهم الى استعمال الكلمة الواحدة في اكثر من معنى واحد .

من اختلاف الطوائف الامرية في نطقها نجدها في لفتنا مضمومة ومتوجهة ومكسورة وساكنة . ومن بعيا استعمالها بمعنى مختلف الفمائر سوف يستغرب القاريء ان يقول له ان (تو) ما زالت تعنى انت بالعربية ، وأن (تا) تعنى انت المخاطب ، و (تي) تعنى انت المخاطبة ، و (ات) تعنى هي . لكننا نجد هنا كلها مدهشا في الفعل الماضي ، فالناء المضمومة تعنى انت في فعلت (= فعل + تو) ، والمكسورة تعنى انت في : فعلت (= فعل + تي) ، والساكنة تعنى هي في : فعلت (= فعل + ات) . وهذه الصيغة الاخيرة (ات) قد ذابت همزتها كما تذوب المءمة في كثير من الحالات التي سميت فيها همة وصل .

وظائف الناء :

اوضحتنا في كتابنا المذكور كيف تتقى الفمائر احيانا وظائفها اي معانيها ، او تتعاضن منها وظائف أخرى . وقد كان ثنان الناء في هذا شأن غيرها من الفمائر فقد تتبدل عليها احداث لغوية المقتنيتها وظيفتها احيانا وابدلتها بها وظائف اخرى احيانا اخرى ، في ظروف تطورية مثيرة ، نجملها فيما يلي :

اولا : متعدد الناء وظيفتها تماما في بعض الاسماء مثل : نجمة وضلعه وماء — يجوز لك حذف الناء من هذه الاسماء فتقول : نجم وضلع وماء ، بنفس المعنى . اي ان الناء هنا لم تستطع ان تجد لها وظيفة ما او تتخصص بحالة معينة تميزها عن حالة تجسرد الاسم من الناء . فيمكننا على هذا ان نسميتها (الناء الزائدة)

ثانيا : وجدت الناء لنفسها بعض الوظائف تؤديها في بعض الحالات ، من ذلك انها تغير معنى بعض الانفاظ مثل : الظهير والماجر والجر . بهذه الانفاظ يكتسب معانٍ جديدة ليست لها اية علاقة بمعانٍها الاصلية حين تتحقق بها الناء تتصبّع : الماجرة والظفير والجرة . وهذه قد يجوز تسميتها (ناء التغيير).

ثالثا : سارت الناء تطلق معنى لبعض الانفاظ التي لا معنى لها . وبتعبير آخر ان الناء سارت جزءا متينا لبعض الاسماء بحيث تصبّع لا معنى لها اذا

وقد نطق بعض العرب اسماء الاناث بغير اللام
قبل الناء ، ولا يزال على ذلك بعضهم كالالمتربيين في
نطق شيريات وعنييات (اسم علم للانثى) ، ومع الزمن
تخصصت هذه الصيغة المديدة لدى الاحمرين بجمع
الاناث السالم ، مثل حميلاط ورلحيات وفانيات .

فِي الْأَنْتِيَرِيَّةِ

وي بعض العرب المعاصرين ينطّقون تاء الثانيت في
لئانهم الدارجة في بعض الاسماء ويهملونها في بعض ،
الكلمات التي ينطّقونها في مثل: المساوات والحياة
والشرift ، ويهملون نطقها في مثل : الحرية والتربية
والصلة .

واهمال نطق التاء في بعض الانفاظ منحدر من اصل هرمي عريق نسبا يظهر ، منشأه ان بعض الافريقيين صاروا يستطونها في الاسم منذ الوقت عليةما في آخر الكلام ننفع - كما هي الحال في التصحي السريومينا . وبذلك زالت التاء وبقى منها اثر هو الهاء الساكنة ، ومن هنا صارت المعاجم العربية تسميه (الهاء) بدل (التاء) . والواقع انها ليست هاءا بالمعنى الصحيح لها على الاقل تتطلق مجرد منحة على آخر الاسم . ويفتضح ان بعض الميجات القديمى اغفت ذلك قاعدة عامة لها حتى مند وتوع التاء في داخل الجملة ، وقد بييت هذه القاعدة في بعض اللغات الارية كاللاتينية والإيطالية ، على اللاتينية يقال : *filia* (بنت) ، و *amica* (صديقة) ، و *lupa* (ذئبة) — تانيا لتو لهم *filius* و *amicus* و *lupus* . وهذه المؤنثات الثلاث توجد بننسما في الإيطالية — غير ان البنت تحكم *figlia* (وتنطق *filia* ايها) . أما مذكراتها في الإيطالية فهي : *figlio* و

lupo + **amico**

واما في الفرنسية فان الناء تنطق صريحة في
الالفاظ المؤنثة بها مثل toutes (جميع)
colle (للمؤنث) و cette (هذه) و
(هادئة) — ومذكراتها tous و ce و
يضاف الى ذلك في الفرنسية ان تصغير الاتيات ايضا يتم
بالحاق الناء في مثل : table (منضدة) و
française (مندوق) و casse
(فرنسية) — وتصغيرها : tablette و
francette و cassette

والمربي والياني والسياف والخيال .. تلك جموعها على مدنية وعطانية ومصرية ويبانية وبيانة وخالة - اي بمجرد اهتمامك بالاسم المرد دون تغيير في تركيب بيته . على حين ان بعض الاسماء تتغير بنيتها اذا جمعت بالناء مثل جمع الماشي والبازري على مشاة وزيارة ، وجمع اللائد والسائق على قيادة وساعة ، وجمع الفنان والمذري على فنانة ونانرة ، وجمع الكاب والمامل على كبة وملة ، وجمع الدب والمبل على ديبة ونبيلة .

ومن الطريق أن الثناء مثارت ادأة الجمع في بعض اللغات الإغريقية أيضا كالإنجليزية والفرنسية والاسبانية ، لكن بعد إبدالها سينا (8) ، وابدال الثناء سينا. موضوع له أهميته التقوية الخاصة ، وقد أوضحته في كتابنا *الذكر* ، والمدد المذكور من مجلة «*اللسان العربي*» .

هذا في الإسم ، غير أن معالجة الناء في ميدان
الجمع شملت الفعل أيضاً ، كما في : ثالت الامراب
وتقول الرجال ، مثلاً ناء هنا تعني الجمع لا الثنائي كما
توفهم النحاة ، بدليل أن الناء في قولنا (انقضت الناس)
تحل محل وأو الجمع في قولنا (الناس انقضوا) ،
وانها في قولنا : (تعلم الرجال) تحمل محل المساوا
والنون في قولنا (الرجال يتعلمون) . وهذه الناء ما هي
الا (ناء الحجم) .

ناتساها : واخيراً ناتي الى تاء النحوين ، اي التاء
التي تدل على الثانيت في اسماء بني الانسان والحيوان
اي الكائنات المتنفسة الى اناك وذكور مثل : مراة
وهرة ونمرة وسميدة وعاقلة — تأبباً لمراة وهو نمر
وسعيد وسائل . وهي نفس تاء المלהقة بالفعل
الماضي في تولهم : جاءت وذهبت — تأبباً لغولهم :
جاءه وذهب

وكانت الناء الملحقة بالاسماء تنطق صريحة فيها
نعتقد حتى عند الوقف مليئا في آخر الكلام كما هي
الحال في الفعل الماضي (فعلت هي) . وما زال بعض
المغرب على ذلك اي ينطلقون ناء التائيا في الاسماء حتى
منذ الورثة عليها ينقولون حين يتراؤن في المصحى :
الشجاعات والحراريت والانسانيات — وهي احدى
اللهجات في لبنان . ومثل ذلك يفعل الاتراك والروس في
اللغايات العربية الثانية المستعملة في لغتيهما مثل : محبت
امانة ، سلطنت ، انسانيت ، ملت .

اختلاط الوظائف :

المدد والمعدود

وناني الان الى تلك القاعدة الشذوذية التي حيرت الانهاء واعتبرت من بدوات اللغة العربية وزواها البوهيمية ، وهي قاعدة تأثير العدد (من الثلاثة الى العشرة) مع الذكور وتذكره مع الاناث ، لتنتمي على ضوء تحليل وظائف الناء . فما تفسيرها يا ترى؟

مفتاح هذا اللفز هو التفريق بين وظيفتي الجمع والتائين . تقبل كل شيء يجب ان نتعرف بان الناء في (الثلاثة) واخواتها انما هي ناء جمع لا ناء تائين ، فحين قال اجدادنا البداء في مهد جاهلي سحق : سبعة فرسان ، لم يخطر لهم ان يؤثثوا الفرسان مثلاً لاسم يخطر لهم ان يؤثثوا البشريين والغازين والخياليين حين سوهم : بياتية وغزارة وخيانة .

اما في حالة عدد الاناث فقد استثنوا اجتماع التائين - ناء جمع المدد وناء تائين المعدود - في مثل (خمسة بتراء) فاستطعوا احدى التائين ، تخليها . ولقد كان التطور اللغوي منطقياً جداً هذه المرة اذ استطع ناء الجمع ، لا ناء التائين ، لأن معنى الجمع ملحوظ بذاته في اسم العدد . اما لو انهم استطعوا ناء التائين من القراءات والفتياں والوالدات لتغير معنى التائين الذي اراده القائل ، بذلك امتنعوا منه .

وحذف ناء الجمع من المدد ينطبق كذلك على جميع اسماء الاخلاص (الجمادات) المنتهية بالناء كال الشخصيات والمفاسد والجنائن ، ثم سرى ذلك على جميع اسماء الاخلاص المؤنثة ، ولو لم تكون منتهية بالناء ، كالمعنى والدور واللوس والحروب .

هذا التفسير يؤيده لنا انهم وازنوا - لفرض التحقيق ايضاً - بين التائين - وكلتاهم للجمع - في الامداد العشرة ، فصاروا اذا نطقوا الناء في احد شطري العدد استطعوا من الآخر ، مثناوا : خمسة عشر حصاناً وخمس عشرة فرساناً ، اي انهم استعملوا ناء واحدة لكل من الذكر والمؤنث في كل من الحالتين .

لم يكن غرض القوم ان تأثير الرجال ولا ذكور النساء ترضية لغزور المرأة واعتراضها .

ملفوظة القول ان الناء وردت في مسمى مختلفة متعددة مميزة ذكرنا ما يحضرنا منها هنا بأجمال ، ولا ندري ان كان قد افتعلنا بعض حالاتها المهمة ، لكننا نتوقع على كل حال ان المستقبل سيتيح بحوثاً ملخصة في هذا الموضوع بعد التشريح الطويل والاستقراء الشامل ، وما نرجو لحديثنا هذا السريع الا ان يكون خبرة لذلك المستقبل .

ويكفينا الان ما تقدم بنا من مظاهر الناء التisser سينماها بحسب وظائفها : الناء الزائد ، وناء التغيير ، والناء اللازم ، والناء المصدرية ، وناء العروبة ، وناء التوكيد ، وناء الامداد ، وناء الجمع ، وناء تاء التائين . افليس من العجب العجاب ان النعمة المشهورين بتدقيقائهم البالغ نعيمها في بعض التوانه ؛ لم يميزوا بين حالات الناء المختلفة هذه بل احتطواها جميعاً ، خبط عشواء ، وكدوها تحت اسم ناء التائين ؟

ويقبل ان ندرج منه حديث الناء ونتقل الى مظهر آخر من مظاهر التائين في العربية يجدر بنا ان نلاحظ ان الامميات التطورية قد عملت عملها في خلط وظائف الناء بعضها ببعض شأنها في مختلف التطورات اللغوية . اي اتنا نجد للناء أكثر من وظيفة واحدة في الكلمة الواحدة أحياناً ، مثل : تفعل انت وتتحمل هي ، تعلمان انتها وتتعلمان هما الغائبان ، اقبلت الجارية واقبلت الفرسان . ومثل ذلك: المرأة العدنانية والمربي العدنانية . بل قد تجتمع في الكلمة الواحدة ثلاثة وظائف مثل (النسابة) وهي تعني المرأة النسبة او الرجل النسب او الرجال النسبين . وشبيه بذلك (السفارة) التي اكتسبت لأن معنى حديثها بالإضافة الى معناها القديم - فقد صارت السفارة تطلق على المؤسسة الرسمية التي يرأسها السفير .

غير ان هذا الاختلاط في المعاني لا يرفع الملامة من النحويين الذين لم يتممموا شيئاً من نشاطات الناء اصلاً ، فقد كان عليهم - جزاهم الله رقماً ونصباً ووتاهم الكسر والجر - ان يميزوا بين بعضها وبعضها ويسموا كل منها باسمه كما يميزوا مثلاً بين حالات النصب الكثيرة في الاسماء وسموا كل منها باسمه .

هو وهي :

و (هي) دون تبييز عندما كان معنى الكلمتين واحدا ، اي ماما للثلاثة أصناف : الذكور ، والإناث ، والاخلاء . وهكذا مسار بعضهم يقول : هو الروح وهو المعنق وهو السكين وهو الطريق وهو السبيل .. وبعضهم يقول : من الروح وهي المعنق وهي السكين وهي الطريق وهي السبيل ، اي انهم افطروا الى تذكير الجناد الغلو او قاتلته لانهم لم يجدوا ضميراثالثا يخصونه به كما خص الانكليلز مثلما ضمیر (ها) بالخلو الغائب المرد (الکتم استعملوا نفس الشعائر للمذكر والمؤنث والخلو في الحالات الاخرى اي في حالات الخطاب والجمع) . ومع الزمن استقر التأنيث في العربية لبعض الاخلاء كالنار والحرب والدار ، واستقر التذكير لبعضها كالجليل والنهر والليل والنهر ، وظل بعضاها الآخر هائما متربدا بين الحالين اي يلونت ويذكر دون تبييز كالروح والعنق والسكين ..

من جهة اخرى نجد ان النساء ايضا قد تخصصت بالتأنيث في مثل الوالدة والمرأة والسلالة والجنبية ، ومن هنا سارت العادة ان تعامل كل اسماء الاخلاء النهائية بالثناء معاملة المؤنث وكانت توهم قدامي العرب - كما توهم النهاة من بعدهم - ان ناه البناة والركوة والخيمة والرابية ايضا تمعن التأنيث مثاليها : هي البناة وهي الركوة وهي الخيمة .

وبتعمير آخر ان التأنيث (العتيقي) قد تناول فيه ضمير (هي) في مثل هي الانان ، مع ناه التأنيث في مثل النسبة والنتاء ، مصارت (هي) تستعمل كتاء ماءة مع اسماء الاناث سواء كانت منتهية بالباء او لم تكن ، ومع اسماء الاخلاء المنهية بالثاء . وقد هوملت هذه الاسماء معاملة الاناث في مختلف حالات الكلام ، فصاروا يقولون : هي الانان وهي الشمعة وهي الغابات .

اما ما يدل على الذكر والانش من الاسماء غير النافية مثل الفرس فيلونت اذا تصدوا الاناث وينذرون اذا قصدوا الذكر .

اما الاسماء التي يجوز نطقها بالثاء وبدونها كالنجمة والليلة فقد انثوها مع الناه وذكروها بدونها مثاليها : هو النجم وهي النجمة وهذا الليل وهذه الليلة ، وذلك الماء وتلك الماء . لكن الصدمة انثوها في كلتا الحالتين مثاليها : تلك الصدمة وهذه الصدمة ، لأنهم اعتبروها انثى في كلتا الحالتين ، اما ذكر الصدمة نسموه العلجمون .

هذا جانب من حكاية التأنيث ، ملتفت الى الى الجانب الآخر منها لتعمس ابعاده في ضمير الغائب (هو) وتطوراته .

ان تأنيث الاسم يعرف من صيغته مثل : جبلة وذلقاء وعطشى ، او من معناه مثل : مرضع وظاهر وحامل ، او من الضمير الدال فيه مثل : هي ، هن .

والذي نعتقد ان، العرب كانوا اول الامرا يستعملون ضمير (هو) الدالة على الذكر والاناث والخلو جيما - انسانا وحيوانا وجادا .. وما زال الامر على ذلك في الفارسية التي ينطبق فيها هذا الضمير بصورة البديهة (او - ها) ، اي كما كان ينطلقه العرب قبل ان يبدوا همزة هاما . يعني ان العرب كانوا في مهودهم اللغوية الاولى يقولون : هو الرجل ، هو المرأة ، هو الشخص ، هو القمر . ثم ظهرت ثلاثة منهم نطق (هو) بالكسر : (هي) بنفس المعنى . ثم اختلطت هذه الثلاثة من العرب بغيرها من اللغات العربية نصار المختلطون يقول بعضهم (هو) وبعضهم (هي) ، ثم نشا منها جيل يستعمل كلا الضميرين بمعنى واحد . وما يدل على ان الضمير (هي) كان يستعمل اولا للذكر انه ما يزال كذلك في الانكليلزية بنفس النطق (هي : he) . كذلك اطلق الساميون القدماء في ارض بابل ضمير (هي) - قبل ابدال همزة هاما - بصفة (ايها - Eia) على الاله الذكر (ماء القمر)

وبمرور الزمن تخصصت في العربية صيغة (هو) بالذكر وصيغة (هي) بالمؤنث . وتظهر (هي) بمعنى التأنيث في اللاتينية (ايها : ecc) اي نفس اسم الاله (ماء القمر) .

ومثل هذا التخصص ملحوظ في التطور اللغوي حين تظفر للفظان بمعنى واحد مع وجود معنى آخر لا لفظه له . فالعادة ان المعنى المحتاج الى لفظ يعبر به من وجوده ينقطع احد اللفظين المترادفين . وهكذا اختلط معنى التأنيث (هي) واستثار بها لنفسه .

منذذ تناولت نوادرات التأنيث والتذكير في العربية . ذلك بان الجناد كذى الروح لابد من الاشارة اليه بضمير ما . وقد كان يقال للجناد (هو)

صيغة الثنائي أو استقر في الكلام ثانية حتى في الدارجات كالشمس والارض وال Herb والثأر ..

ونشتمل التدالى - القراءة - انهم اصابوا حين انشوا بعض الاسماء مع خلوها من ملامة الثنائي كالظاهر والمرفع والحاصل ، لأن هذه الصفات لا تكون الا في الاناث ، ولو انهم - العرب - شذوا حين عمموا صفة الولادة على الرجل . وبطبيعة استفراط القراءة لقولنا هذا اذا ذكر انهم يسمون الاب (والا) مع استعماله الولادة عليه . واصناع صفة الولادة على الاب وهو منها براء ليس كذلك من باب مجاملة المرأة او الفضوع لسيطرتها ، وانما جاء من اطلاق (الوالدين) على الام والوالدة والاب ، كما اطلقوا (القمرین) على الشمس والقمر . وقد اطلقوا عليهما (الابوين) ايضا ، لكنهم لم يسموا الولادة ابة كما سمو الاب والدا .

الا ان ذلك المنطق - في النظر والحاصل والمرفع - يطير هباء في مثل : الخادم والعاتر والرسول والضيق وامثلها من الاسماء التي تطلق على الذكر والانثى ، اي ان الصيغة في هذه الاسماء يمكن اعتبارها خنثى ، وانما تكون ذكرا او انثى حين تميزها قرينة من الضمائر او غيرها حيث يقال : هي الخادم ، وهن العاترات ، وتكل الرسول ، وهذه الضيق .. او : هو الخادم وهم العاترون ..

ثانية الجموع :

والآن وقد رأينا الثنائي في حالته ، اي نشوئه من اشارة الناء او لا ومن استعماله ضمير (هي) ثانية ، نأتي الى ظاهرة اخرى منشؤها اختلاط معنى الجمع بالثنائي ، في كلتا الحالتين .

ان معاملة بعض الاحلاء من الجمادات معاملة الاناث قد سرت دعواها الى جموع تلك الجمادات ثم الى جموع كل الجمادات ، فصارت تؤثث بالناء ويشار اليها بما يخص الانثى المفردة من الضمائر وأسماء الاشارة والصفات ، ما تجتمع نتائجه في مثل قوله : تلك هي (الجبال) الشماء الزاهية التي تسر رائتها . تجتمع الانفاظ في هذه العبارة خامسة بالانثى مع انها تدل على الجبال التي مفردتها (الجبال) مذكر .

وإذا كانت حياة الاستقرار والاجتماع في صعيد قد أدت الى ثبوت القواعد اللغوية ، مثل ، الثنائي بالفتحة كقاعدة عامة في اللاتينية ، مان حياة التلة في المعرفة وتكرار انفصال اهلها واجتامعهم على غير نظام تد جعل من المعرفة مختبرا لغويًا تقع فيه تجارب لغوية كبيرة التنويع والتعميد دائمة التفاعل والتباين والتولد . (وقد استمرت المعرفة تصدر نماذج منها الى الخارج ، لغات ولهجات ، على السنة الآربين والجامعين والساميين ، منذ سحق المصور) .

وبنتيجية ذلك التفاعل والتباين والتولد في المعرفة صار بعض التبائل يؤثر بعض اسماء الاخلاق كما رأينا ، وبعض التبائل يذكرها ، وبعضهم يؤثرها ويدركها . فلهذا اختلف اللغويون فيما يؤثرون ويدركون من اسماء الجمادات لأن بعضهم يروي عن هذه الطائفة وبعضهم عن تلك .

وقد اخذ المحدثون من معاصرينا يبنون الى اعتبار (هو) ضميرا عاما للذكر والتعريف من المنسى (1) معا ، مثل اليوم من يقولون (هي الطريق) واقل منهم من يقولون (هي السوق) فيما عدا قولهما : السوق السوداء والسوق المستزقة . واما كلمة (السلم) فلا نظن اتنا قرأتها مؤثثة لاحد من المحدثين ولا حتى المتنفسين منهم . واما (الربيع والغول) فلا نذكر انها مروا بنا شخصيا مؤثثين في شعر او نثر حديث ولا تديم ، بالرغم من ان اللغويين ادرجوها ضمن الاسماء المؤثثة .

وفي اللهجة المصرية يؤثثون الامضاء والمهناء مثلا وينطونها الامضة والمهناء لانتهائهما بالفتحة ، وفي اللهجة المغربية يؤثثون الزيت لانتهائه بالناء . وبعض العراقيين يؤثثون الرأس والباب والبطن ، بل ان بعض ضعاف الكتاب من معاصرينا يفعلون ذلك ايضا ، وقد وجدناه حتى عند ذوي الاسماء الانفائية (اي التي طببت شعرتها الاماق) .

هذه الببلة التي كانت شفلا شافلا للغويين التدالى ، هي التي حدت ببعضهم الى ان يقول بجوائز الثنائي والذكر في جميع اسماء الجمادات التي لا تدل صيغتها على الثنائي . واسوأ من هذا هو الاتجاه الذي ينتحله التطور في هذا الجيل . كالذى نوهنا به ، اي تحليب التذكر على الاسماء الخلوة ، الا ما ورد في

(1) نقصد بالمثل - زنة البرد - آلة التراسيل للذكر والانثى .

وتعامل الاخلاه احيانا معاملة جمع المؤنث السالم
يقال « انهن مصور مطاولات ودهور داهرات » .

ماذا أضفنا الى هذا جموع المؤنثات الحقيبيات
من بني الانسان والحيوان ملاوة على بعض أسماء
الذكور التي تجمع بالذاء كالسيانية والقبالة ، وتتوال
الرجال وتتعل — مما ظنوه تائينا — انفس لنا لماذا
تغلب الثنائيت على اكتر الجموع ، ومررتنا لماذا قال
شعرور النعامة :

ان قومي تجمعوا ويتظلي تحديوا
لا ابالسي بجمهم كل جمع مؤنث ا

وما سميئناه شعروا لغثالة شعره لكن لأنه لم
بالاصلية الى ذلك ان (كل جمع) مؤنث ، متجاهلا
جموع الذكور مثل : هم الرجال ، نعلوا ، وبعلمون ،
وماطلون . ولو قد قال بدلا من ذلك (رب جمع مؤنث)
لاحسن واصاب ، بمعنى أن (رب) للتكثير لا للتقليل .
بهذا نبيان نظن موجز حكاية هذا الثنائيت الموضوي
الذي يليل باللغويين وال نحويين ، نديما وحدينا ،
من شرقين ومستشرقين — المسؤول في احداثه
شمير (هي) الذي خدع العرب الاتدرين بمعنى
للتذكير والثنائيت ، وشريكته في العرم (النساء) التي
خدمت العرب الاتدرين والنها من بعدهم بمعانيمها
الكبيرة المتشابكة .

